

الفصل الثالث

مفهوم السيماتيك وتاريخه

ما هو السيماتيك :

السيماتيك هو علم الدلالة ، أو علم المعنى ، وهو فرع من فروع علم اللغة . ويعتبر من أحدث الدراسات اللغوية ظهوراً على وجه العموم . ويدرس اللغة من حيث دلالتها أى من حيث أنها أداة للتعبير عما يجول بالخاطر .

وبالرغم من أن الدراسات اللغوية كانت قاصرة على اللغويين . إلا أن موضوع المعنى قد تناوله بالبحث علماء ومفكرون من ميادين مختلفة كالفلسفة والمناطقة، وعلماء النفس والاجتماع ، والانثروبولوجيا، وعلماء السياسة والاقتصاد ، والأدباء ، والفنانين ، وعلماء الدراسات الطبيعية .

ولهذا ، كان اسم هذا العلم موضع خلاف فى اللغات المختلفة فأطلقوا عليه :

السيماتولوجى Sematology ؛ والسيمولوجى Semology ؛ والسيماسيولوجى Semasiology ؛ والسيماتتم Semanteme ؛ والسيم Sememe ؛ والسيم Sème ؛ والسيماتيك Semantics .

إلا أنه بالرغم من هذا الخلط الواضح فى استخدام المصطلحات التى أطلقت على هذا العلم ، فقد استطاع علم الدلالة أن يشق طريقه فى التطور من أفكاره الأولى التى قامت على أساس تاريخى لا وصفى .

والواقع أن علم الدلالة التاريخى يدرس تغير المعنى من عصر إلى عصر ، وأن علم الدلالة الوصفى يدرس المعنى فى مرحلة معينة من مراحل تاريخ اللغة . والأول يدور حول التغيرات المعنوية ؛ والثانى حول العلاقات المعنوية .

نشأة السيماتيك

نشأ المصطلح سيماتيك Semantics من الكلمة اليونانية « سيمانين Semanein » ويقصد بها المعنى والدلالة .

وقد وجد هذا المصطلح في دراسات الفلاسفة القدامى ، حيث استخدمه أرسطو كصفة من الصفات اليونانية بمعنى دال Significant .

وتعتبر دراسة ميشيل بريال Bréal أول دراسة علمية حديثة في موضوع المعنى . حيث أن هذا العالم الفرنسي هو أول من أطلق على هذا العلم اسم السيماتيك La Sémantique أي علم الدلالة ، الذي يشتق من الفعل « يدل على » .

ويلاحظ أن هناك اختلافاً واضحاً بين هذا العلم ، والفونتيك La Phonétique أي علم الصوت . كما أوضحنا فيما سبق .

وهكذا ، فإن بريال Bréal قد أطلق على هذا النوع من الدراسة اسماً يميزها عن سائر الدراسات اللغوية الأخرى .

وقد استقى بريال المبادئ والأصول الخاصة بهذا العلم ، من دراسات اللغات الكلاسيكية وهي : اليونانية ، واللاتينية ، والسنسكريتية .

وقد رأى أن تغير المعنى يعتمد على خصائص عقلية مجردة مثل « الحاجة إلى الوضوح » .

إلا أن بريال « ومن بعده » لم يهتموا بالجانب الاجتماعي وغير الاجتماعي للظروف الإنسانية التي يحدث فيها تغير المعنى . وكانت لدراسته أثر كبير في لفت أنظار اللغويين إلى مشكلة المعنى وتغيره محاولين دراسة الظروف الخارجية التي تؤدي إلى مثل هذا التغير الذي يحدث في تاريخ الكلمات .

ولكن لم يلبث هذا المصطلح أن انتقل إلى اللغة الانجليزية مترجماً بالكلمة سيماتيك Semantics . إلا أن هذا المصطلح الانجليزي قد تعرض للغموض ، ولذلك استبدل به المصطلح القديم سيماتسيولوجي Semasiology . غير أن المصطلح سيماتيك Semantics نظراً لخفته في النطق ، قد عم انتشاره بدرجة أكبر .

ثم في السنوات الأولى من العقد الثالث من هذا القرن، تناول الفلاسفة البوانديون المصطلح Semantics في علم المنطق الرمزي Symbolic Logic وقصدوا به البحث في الرموز ومعانيها .

وقد تناول أوجدن وريتشارد Ogden & Richards دراسة المعنى وما تتصف به طبيعة هذه المشكلة من تعقيد . وقام تفسيرهما على أساس رياضي ألى . وبين أوجدن Ogden فى بحثه « الانجليزية الأساسية Basic English » أنه من الممكن الاستغناء عن بعض الأفعال فى اللغة الانجليزية ، وعن بعض الكلمات كالمترادفات ؛ وبالتالي الاقتصاد فى الثروة اللفظية بقصد تسهيل التفاهم بين الأفراد من حيث التركيز على عدد معين من الكلمات ذات المعانى الدقيقة المحدودة .

ويرى أن عددا محدودا من الكلمات التى تتميز بوضوح المعنى ، لى خير بكثير من آلاف الكلمات ذات المدلولات الغامضة .

ثم ظهرت فى الولايات المتحدة حركة تسمى « السيمانتيك العامة general semantics » . زعيمها الكونت البولندي الفرد كورزيسكى Korzybski .

وتهدف هذه الحركة إلى تخليص الفكر الإنسانى من المغالطات اللفوية ؛ حيث وجد كورزيسكى أن اللغة تعكس أحداث العالم الخارجى فقط وبصورة غير كاملة ؛ حيث توجد هوة تفصل العالم عن الأشياء التى توجد فيه .

والفرد يمكنه إيجاد نمط من الاتصالات بينه وبين الآخرين عن طريقه تنتقل المعانى سواء أكان ذلك فى مجال العلم ، أم الصحة النفسية ، أم الهندسة .

ويرى كورزيسكى أن المشكلات الاجتماعية عند الأفراد تنتج من استخدامهم لمصطلحات غامضة كثيرة، تتداخل مع انفعالاتهم تداخلا ينتج عنه اختلاط استجاباتهم الدلالية بدرجة كبرى . كما أن انحرافات سلوك الأفراد ترجع إلى ربود أفعال عصبية - دلالية neuro-semantic reactions ؛ وأن حل هذه المشكلات الاجتماعية يتوقف على مقدار استعمال الرموز استعمالا صحيحاً لا لى فيه .

وهكذا ، فقد تضمنت دراسات كورزيسكى والمشتغلين من بعده فى ميدان السيمانتيك العامة ، المجال الكلى للعلاقات الإنسانية حيث تؤدي عملية الاتصال التى تتطلب كلا من مرسل ومستقبل نوراً سيمانتيكاً هاما فى مناشط وحياة الفرد بأكملها .

وأما شيس Chase فقد وجد أن التمرينات الدلالية semantic exercises تعتبر النواء الشافى من كل الأمراض حيث أن ذلك يتطلب توضيح كل من الموضوعات ، والأشياء ، والأسماء فى المجالات المختلفة ك مجال القانون ، والاقتصاد ، والإدارة ، والاجتماع .

ويرى شيس أنه إذا أمكننا الوصول إلى تعريفات واضحة لتلك الموضوعات ،
وطرحنا جانبا الألفاظ التي لا معنى لها ، يمكننا في هذه الحالة أن نصل إلى حل المشكلات
الاجتماعية .

وقد أوضحت دراسة كل من هايا كاوا Hayakawa ، ولى Lee شرح مبادئ العصبية
الدلالية neuro-semantics .

وهكذا ، أسهم كتاب مدرسة كورزيسكي بالكشف عن بعض الجوانب النفسية الدالة التي
كانت مجهولة من قبل .

وأما أصحاب المنطق الوضعي أمثال كارناب Carnap ، فنجده قد تناول السيميانتيك من
حيث أنه أداة tool أو وسيلة معينة لاكتساب المعلومات وتنظيمها داخل نسق معين ؛ من حيث أن
السيميانتيك هو بحث في دلالات الألفاظ والعبارات ومعانيها . بمعنى دلالة اللفظ على مسماه ،
وهذه الدلالة عبارة عن علاقة ما بين اللفظ وبين شيء أو موضوع آخر ليس هو اللفظ نفسه كما
يعرف داخل حدود اللغة فمثلا : لفظ « الامتحان » يعرف داخل حدود اللغة بأنه عبارة عن أسئلة
معينة تقيس تحصيل التلاميذ في المواد التي درسوها ؛ بينما هذا اللفظ « خارج حدود اللغة »
يحمل معانى ودلالات مختلفة لدى الأفراد .

وقد وجد شارل موريس Morris أن السيميانتيك وسيلة لاكتساب المعلومات ، وأن العلامات
Signs أو المثيرات هي التي تمد الفرد بهذه المعلومات ، وأن الاهتمام بالعلاقات العامة - في ذلك
الحين - وطرق الاتصال بين الأفراد كان مثار الاهتمام بالسيميانتيك ؛ وبالتالي تركيز الانتباه
حول عملية اختيار الألفاظ وترتيبها ، حتى يصبح هذا الاتصال أكثر فاعلية وقوة .

وحيثما أن اللفظ يرتبط ارتباطا قويا بالسلوك الإنساني ، كانت اللغة - بوجه عام - هي
الأساس المهيمن على هذا السلوك ، وهي المحرك الرئيسي الأول له والتي بها تتحقق الأهداف
والرغبات .

تعريف السيماتيك

إذا تتبعنا تعاريف السيماتيك ، فإننا نجدها قد أشارت إليه على أنه : علم الدلالة أو المعنى ؛ متضمناً ذلك في المصطلح « Semantics » كاسم « noun » .

كما أشارت إليه أيضاً كصفة « adjective » وذلك بالمصطلح Semantic من حيث أنه يرتبط بالدلالة والمعنى .

فقد عرف جود Good (١٩٤٥) السيماتيك بأنه : « علم المعنى الذى يختلف اختلافاً تاماً مع علم الصوت » .

وعرف فى قاموس وبستر Webster (١٩٥٣) بأنه : « علم المعنى الذى يختلف تماماً مع علم الصوت ، والدراسة التاريخية والسيكولوجية للتغير فى معانى الكلمات وتصنيفها » .

كما عرف فى قاموس ونستون Winston (١٩٥٧) بأنه : « علم معانى الكلمات ، والنمو التاريخى لفهم وإدراك معانى الكلمات من حيث أنه يختلف تماماً مع علم الأصوات والسمعيات » .

تعريف انجليش وانجليش English & English (١٩٥٨) : « علم معانى الكلمات . وما يتعلق بالمعنى والدلالة » .

تعريف فورمان Foreman (١٩٦٨) : « علم الأثر الاجتماعى والنفسى للغة ، وعلم تصنيف التغير فى معانى الكلمات » .

ومن الملاحظ أن هذه التعاريف جميعها ، تشير إلى ضرورة التفرقة بين أمرين :

أولاً : علم الصوت وهو ما يعرف بالفونتيك Phonetics ، وهو يتعلق بدراسة النطق والسمعيات من حيث سماع صوت الكلمة نفسها واختلاف هذا الصوت من كلمة إلى أخرى .

ثانياً : علم السيماتيك Semantics أو علم الدلالة والمعنى ، من حيث دراسة معانى الكلمات ، والتتبع التاريخى لتطور هذه المعانى ؛ والتغير الذى يحدث فيها ؛ ودراسة العلاقة بين المثيرات اللفظية « المرئية والمسموعة » وما تدل عليه هذه المثيرات .

ويلاحظ أن هذه التعاريف - عموماً - قد أشارت إلى أن السيماتيك هو ما يرتبط بالدلالة والمعنى .

التعريف الإجرائى للسيماتيك هو :

دلالة اللفظ ومعناه النفسى عند الفرد .

فالفرد يكون دلالات ألفاظ عديدة في حياته ، تختلف وتتباين تبعاً لمقدار ونوعية الخبرة وطرق التعلم التي اكتسبها إزاعها .

لذلك تتمايز دلالة هذه الألفاظ ومعانيها النفسية لدى الفرد ، الذي يمكنه - بالتالي - التعبير عن ذلك بصور لفظية متميزة .

السيمانتيك كمفهوم فلسفى

إن السيمانتيك كمفهوم فلسفى ، يدور حول الاختلاف القائم بين الطريقة التى يستخدم فيها اللفظ للتساؤل عما يتضمنه الشعور والإحساس . حيث يرى كوين Quine ، أن التحليل السيمانتى ليس المقصود به نظرية تمثل حقيقة العالم كما هو بالفعل ، إنما يقصد به كل ما يمكن أن يقال عن هذا العالم وما يتضمنه .

والفكرة الرئيسية فى هذا التحليل السيمانتى ، تقوم على أن الأسئلة التى يتناولها الأفراد فيما بينهم فى أحاديثهم اليومية ، إنما هى فى حقيقة الأمر تتضمن معانى سيمانتية يشعرون بها أثناء تناولها . وبالتالي يتنوع هذا الشعور ويتعدد بتعدد الأفراد فى مواجهة هذه الأسئلة . وفيما يدور بينهم من أحاديث .

فمثلاً ، السؤال : « هل يوجد رجال على كوكب المريخ ؟ » .

إن هذا السؤال نفسه يحتوى على السيمانتيك بمعنى : أن السؤال يتضمن ما إذا كان الناس الذين يعيشون فى هذا الكوكب ليسوا فعلاً حيوانات .

فاللفظ « حيوان » ، بهذا المعنى يمكن أن يتضمن معانى مختلفة ؛ وهو فى هذا المجال بالذات يمكن أن ينطبق على الإنسان من حيث أنه حيوان ناطق . ولذا فالمقصود من هذا اللفظ هو معناه الضمنى ، وليس معناه الإشارى ؛ بمعنى أن الناس الذين يعيشون فى هذا الكوكب عبارة عن حيوانات فعلاً .

وقد وجد باب Pap أن القضايا التى يتناولها الأفراد تتضمن نوعاً من الاستخدامات الوظيفية التى تختلف من فرد لآخر . وقد أطلق عليها « المتغير الحر free variable » .

ورأى أن هذه الاستخدامات الوظيفية للقضايا لا تحتل الصدق أو الكذب ، الصواب أو الخطأ ، وإنما يتوقف صدقها أو كذبها على الفرد ذاته . وفى الواقع ، يقوم الفرد بتحليل معانى القضية تحليلاً سيمانتياً حيث يعطى انطباعاته المباشرة نحو معانيها ، أى استبطان هذه المعانى .

ويرى الفلاسفة أن مفهوم المعنى يتضمن جوانب سيكولوجية معقدة ، ذات علاقات متشابهة بالنسبة إلى الأفراد ؛ تؤدى بدورها إلى حدوث تصنيفات مختلفة بالنسبة إلى المفهوم الواحد ، الذى تظهر دلالاته مرتبطة بخط سيكولوجى طويل معقد يتضمن أموراً ومواقف متباينة من حيث المحتوى والمضمون .

وقد أوضح ويتهد Whitehead المفهوم السيمانتى من حيث أن اللفظ الواحد عند الفرد يتضمن قيمة value معينة بالنسبة إلى موضوع أو شيء ما .
والقيمة عبارة عن خاصية أو صفة لهذا الموضوع أو الشيء . فالجمال مثلاً عبارة عن قيمة من القيم الجمالية ، فقولنا : أزهار الحديقة متفتحة ؛ وغروب الشمس جميل . فإن ذلك يتضمن قيمة جمالية معينة أى صفة أو خاصية يصف بها الفرد شعوره نحو هذا الموضوع .

السيمانتيك كمفهوم سيكولوجي

يختلف السلوك اللفظي اختلافا تاما عند الأفراد بالنسبة إلى الأشياء والمفاهيم ، فاستجابة الفرد - في حقيقة الأمر - تكون بالنسبة إلى المعاني التي يراها هو مناسبة لهذا المفهوم أو ذاك . ومن هنا ينشأ الاختلاف في السلوك اللفظي عند فرد وآخر لأن كلا منهما يفترض أن ما يراه هو حقيقة الأشياء والموضوعات .

وفي الواقع - هذه المعاني لا تعبر عن الحقيقة ذاتها ، حيث أن المعنى الذي يراه الفرد شيء ؛ والواقع الخارجى شيء آخر يختلف عنه تماماً .

ولذلك تختلف الألفاظ عن الواقع تماماً ، ومثل ذلك كمثل التمثال الذي يمثل شخصية ما ، فالتمثال شيء يختلف تماماً عن الشخصية ذاتها حيث يعبر عنها بقدر ، وليس ينطبق عليها تمام الانطباق من كل جوانبها وتفصيلها .

وكذلك الحال بالنسبة إلى الخرائط الجغرافية ، فهي تعطينا وصفاً للأقاليم المختلفة ، لا يمكن القول بأنه وصف غير دقيق لتلك الأقاليم ؛ إلا أن الأمر مختلف تماماً في الواقع الفعلي ، فالخرائط والأقاليم ليست شيئاً واحداً تماماً .

وفي الحياة اليومية للأفراد ، يلاحظ أنهم يستخدمون ألفاظاً لا تعبر عن المعنى الحقيقي كما هو في الواقع تماماً . فمثلاً : عبارة « الجو حار » لا تعبر عن قراءة درجة الحرارة الراهنة كما هي بالفعل ، أى كحقيقة علمية ؛ وإنما تعبر عن حالة الفرد التي يشعر بها هو ذاته بالنسبة إلى حرارة الجو ، وبالتالي يعبر عنه بمعنى معين ينطبق عليه هو ، ولا ينطبق على فرد آخر .

وقد وجد والبول Walpole ، أن سيمانتيك اللفظ يمكن أن يتحدد بنوع من الأسئلة التي تثار حول هذا اللفظ ؛ وتتفق تلك الفكرة مع الطريقة التي اتبعها سقراط للوصول إلى الأفكار الحقيقية عند الأفراد بالنسبة إلى موضوعات مختلفة ، حيث قامت هذه الطريقة على أسئلة ومناقشات فلسفية معينة .

ويرى أوجدن وريتشارد Ogden & Richards ، أن اللفظ الذي يستخدمه الفرد يتميز بدلالة معينة لديه قد تختلف عن دلالاته عند فرد آخر . ولذلك فإنه عند استخدام الألفاظ يجب أن يتمثل بوضوح في ذهن من يستخدمها ما تستند إليه فعلا هذه الألفاظ حتى يكون الاتصال والتفاهم بين الأفراد اتصالاً حقيقياً ، وحتى لا يحدث الخلط والخطأ فيما تستند إليه أصلا هذه الألفاظ .

وتدلنا دراسات ويتهد Whitehead ، أن اللفظ يحمل جانبين من المعنى : أحدهما المعنى الإشارى أو الحرفى وهو الذى يشير إلى ما يتضمنه اللفظ من صفات واستخدامات لا تختلف من فرد لآخر ، ولا من مجتمع لآخر ، حيث يتمثل ذلك فى المعانى القاموسية عموماً التى تتناول الشرح والتفسير الموضوعى للفظ من جميع نواحيه .

كما يتمثل هذا المعنى الإشارى أيضاً ، فى العلوم والرياضيات حيث المفاهيم والمصطلحات موضوعية بحتة تتجنب أى معان انفعالية نفسية ذاتية .

وأما الجانب الآخر من المعنى فهو : المعنى الضمنى أو النفسى ، ويشير إلى ما يتضمنه اللفظ من دلالات عند الفرد ، فهو بذلك معنى فردى ذاتى ، وبالتالي يعتبر معنى مقيداً بالنسبة إلى متحدث واحد فقط ، لا يتميز بالعمومية ولا التداول بين الأفراد جميعاً .

ويظهر هذا المعنى بوضوح فى الأحاديث العادية للأفراد ، وكذلك فى كتابات الكتاب ، وأشعار الشعراء حيث تنعكس المعانى النفسية الذاتية بصورة واضحة قوية تجاه الألفاظ والمفاهيم المتباينة .

ويتبين لنا من دراسات فيجوتسكى Vygotsky ، أنه أشار إلى وجود مظهرين رئيسيين يميزان أحاديث الأفراد هما : المظهر السيمانتى للفظ ؛ والمظهر الصوتى أو المعنى الإشارى للفظ .

ويتم نمو هذين المظهرين من المعنى بالنسبة إلى الطفل فى اتجاهين متضادين : أحدهما يبدأ من الخاص الجزئى إلى العام الكلى ، أى من الكلمة إلى الجملة . وهذا هو المظهر الصوتى أو المعنى الإشارى للفظ حيث فيه تزداد حصيلة الطفل اللغوية شيئاً فشيئاً ، حتى يمكنه فى النهاية استخدام الجمل مبتدئاً من الجمل البسيطة إلى الجمل المعقدة .

وأما المظهر الآخر للمعنى ، فيبدأ من الكلى إلى الجزئى ، أى من الجملة إلى الكلمة .

وهذا ما يطلق عليه : المظهر السيمانتى للفظ ، حيث فيه يبدأ الطفل بتعلم الكليات ثم الجزئيات ، فأول لفظ ينطقه الطفل يعتبر فى حقيقة الأمر - جملة كلية . فلفظ « بابا » ليس مجرد مقاطع صوتية بحتة ، وإنما يحمل معانى معقدة لديه .

ويمثل لنا هايكا كاوا Hayakawa ، مظهرى المعنى تمثيلاً طريفاً نعرضه فى العبارات التالية :

إن الفرد يمكنه التعبير عن المعنى النفسى للفظ ، حتى فى حالة وضعه يديه فوق عينيه ، وترك الألفاظ تنور فى رأسه حول موضوع أو مفهوم معين .

إلا أن الحال يختلف بالنسبة إلى المعنى الإشارى ، حيث يمكن للفرد أن يضع يديه فوق فمه ويشير إلى الشيء أو الموضوع فقط .

وإذ ذلك ، فإن المناقشات والأحاديث حينما يكون لها نهاية بين الأفراد ، تؤدي بهم إلى اتفاق فيما يتناقشون ، يعتبر ذلك هو المعنى الإشارى .

أما إذا استمرت هذه المناقشات إلى ما لا نهاية ، وعدم اتفاق فيما يتناقشون ، فإن هذه الحالة تعتبر هي المعنى النفسى للألفاظ .

وقد أشار سكينر Skinner ، إلى المعنى الإشارى بأنه : « العبارة الوصفية التى تشير إلى موضوع بأكمله » . فمثلا : عبارة « فقري » تشير إلى الفقرات بأكملها .

كما أشار أيضا إلى المعنى الضمنى بأنه : « العبارة الوصفية التى تتضمن خواص معينة وتستغرق موضوعاً بأكمله » . فمثلا : عبارة « فقري » تتضمن خواص معينة كخاصة العمود الفقرى وغير ذلك من خواص « المفهوم » كالجنس والنوع والفصل .

وهكذا ، نرى أن المعنى الذى يراه الفرد شيء ، والواقع الخارجى شيء آخر . وأن القواميس ودوائر المعارف تحمل للألفاظ تعاريف ؛ بينما يحمل الأفراد لها مضامين ، ويمكن القول بأن المضامين هي التى تؤثر فى التفكير وتحكم فى السلوك .

* * *